

# دمشق في الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

## د. نور الدين حاطوم

الحديث عن دمشق ، في الحرب العالمية الأولى ، ذو شجون . ولكن هذه الشجون كانت مصحوبة بالأشجان . فحيث تكون الشجون تكون الأشجان ، وحيث توجد الأشجان توجد الشجون : صنوان من دوحة العاطفة العربية ، اختلفا ثم التحما وتعانقا فتشاكل الأمر .

دخلت دمشق الحرب العالمية الأولى، وليس لها فيها يد . لقد فرضت عليها فرضاً . أهلها يوم ذاك ، وكأن على رؤوسهم الطير ، كانوا يتساءلون عن المصير . هل سيظلون تابعين للدولة العثمانية ويسامون الخسف ، أو سينجون من جور الأتراك الاتحاديين ويقعون في حبائل الدول الاستعمارية ، ويكون شأنهم شأن المستجير من الرمضاء بالنار ! هل ستكون الحرب في صالحهم أو تقوم الساعة فيرث الله الأرض ومن عليها ؟ تساؤلات وترددات ، مخاوف وآمال تشابكت مع بعض أمام مصير في عالم الغموض .

قبل الحرب وفي الحرب ، كانت دمشق قطباً لتحرك سياسي عربي منقطع النظير . كل الأنظار العربية تتجه شطرها؛ كل العرب من مختلف أقطارهم يتوافدون عليها . وهي وهم على موعد ولقاء . الخوف من الاتحاديين قائم ، والآمال بغدٍ مشرق غير مضمون . ولم ينقطع بعد حبل الوصل بين العرب والأتراك .

وما زال الناس يعتبرون ، رغم الارهاق، أن الدولة العثمانية دولتهم ، وأن رجال السلطة فيها سادتهم .

للإجابة عن هذه الأسئلة والتساؤلات يقتضي منا البحث معالجة نقطتين أساسيتين وهما :

١ - الوضع السياسي العربي - العثماني بعامة ، والوضع في دمشق بخاصة .

٢ - دمشق في الحرب .

١ - الوضع قبل الحرب :

ما من شك في أن كل تحرر سياسي لابد وأن يكون مسبقاً بتحرر فكري ، والبلاد العربية ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وحتى الربع الأول من القرن العشرين كانت تنتابها موجة فكرية واسعة النطاق، متعددة النواحي، بدا صداها ينعكس على الحياة العامة بمطالب سياسية . وهذه المطالب لم تبدأ إلا بعد أن تشكلت في البلاد العربية طبقة فكرية مختارة ومستنيرة ومتأثرة بالحضارة الغربية . بدأت بشكل تحسس وشعور ، وانتهت بوعي أكيد . ولم يكن هذا الوعي على درجة واحدة ، كما لم يخامر جميع الأذهان ، والسواد الأعظم من أبناء العرب منهمك في مشاغل حياته اليومية ، يسعى وراء رزقه ، لا يهمه من أمر السياسة قليل أو كثير : ناهيك أن الأمية في أوساطه كانت بنسبة مرتفعة .

وما كان لهذا الوعي العربي المتفتح أن يتحرك لولا ما حدث في الامبراطورية العثمانية من تغييرات مرحلية تتلخص بمحاولات الإصلاح المتوالية : من قضاء على الانكشارية ، وصدر مرسوم خطي شريف ١٨٣٩ ، ومرسوم خطي همايون ١٨٥٦ ، وإعلان الدستور ١٨٧٦ ، ومن ثم تعطيل الدستور ، ومن بعده العودة إليه ، ولو ظاهراً ، منذ عام ١٩٠٩ . وكان لكل من هذه المحاولات أنصاره وخصومه ومعارضوه .

والجدير بالذكر أن أبناء المسيحيين من العرب ، ممن درسوا في المعاهد والجامعات الأجنبية ، كانوا أسبق من غيرهم الى تفهم الفكر الغربي الحديث والاطلاع على مآتيه في مفاهيم الحرية والقومية والاخاء ، والعدالة

والمساواة ، والمواطنة ، والمشاركة في الحياة الوطنية ، و بث الأفكار التي تدعو أبناء الوطن الواحد الى الاتحاد ، ونبذ التعصب في سبيل العيش المشترك، واعتبار الدين لله ، والوطن للجميع . وما لبثت هذه الأفكار ، مع نمو الثقافة ، أن عمت المثقفين من أبناء العرب مسيحيين ومسلمين .

يضاف الى ذلك أن الحركات القومية التي قامت في أوربة : من وحدات قومية ، أو حركات تحررية ، وبناء دون حديثة ذات أنظمة دستورية ، كان لها أثرها الواضح أيضاً على الأتراك والعرب معاً ، كل فيما يخصه . غير أن بعض الكتاب ، من أبناء العرب ، كانوا يشكون في قيمة هذه الدعوات التآلفية بين قلوب العرب والأتراك ، ويخشون أن تنقلب لصالح الفريق الأقوى ، الأتراك . ولكن آخرين كانوا يرددون بأن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان ، وما كان سائداً أو مقبولا في الماضي لا يصح قبوله أو بقاءه في الحاضر إلا بعد إعادة النظر فيه وتكييفه مع متطلبات العصر .

والدراسة لتاريخ الحركات القومية العربية في البلاد العربية ، ترينا أن مسار التوجه بعد أقول المجد ويقظة الفكر ، كان على الشكل التالي : نهضة فكرية عامة ، دعوة اسلامية عامة، دعوات اسلامية اقليمية، دعوة اسلامية - عربية، دعوة قومية عربية .

أما القوميات الأخرى في الدولة العثمانية ، فقد هبت عليها رياح التغيير أيضاً ، وأخذت تتحرك لتزيح النير العثماني الرابض على أعناقها. وبالمقابل اضطر رجال الدولة العثمانية الى التفكير بصهر هذه القوميات جميعاً في بوتقة واحدة . عندئذ انقلبت فكرة العاطفة العثمانية ، التي كانت سائدة في الماضي ، الى عاطفة قومية تركية بحتة . وأخذ الأتراك الاتحاديون ، بعد انقلابهم ، يرددون أن أساس الامبراطورية يجب أن يكون وحدة قومية قائمة على الناطقين باللغة التركية من أصل تركي ، وأن تتجه سياسة الدولة نحو زيادة الاهتمام بكل ما هو تركي في داخل الامبراطورية وخارجها ، وأن الامبراطورية كانت وما تزال ويجب أن تظل دوماً وطن الأتراك الأقحاح ومن تترك من أبناء القوميات الأخرى طوعاً أو كرهاً . وظهر أثر ذلك بمحاولات رجال الامبراطورية

الاتحاديين في فرض سيطرة العناصر التركية في الحكم والادارة ، وفي اصلاحات مختلفة خاصة شملت مختلف مرافق الدولة .

ومع ذلك ، وجد بين العرب من كان يدافع عن هذه السياسة التركية القومية التي يراد بها تقوية الامبراطورية وتحديثها والحفاظ على بقائها وسلامتها . لأن المهم في نظرهم . قبل كل شيء ، دفع الأخطار الخارجية الأوربية ، والبقاء في رعاية الامبراطورية العثمانية التي تجمع العنصرين ، العربي والتركي ، فيها تاريخ مديد وحياة مشتركة بعيدة ؛ ولأن الأمل لم ينقطع بعد من الأتراك . بيد أن الاتحاديين المنادين بتركيتهم وطورانيته لم يكونوا على مثل هذا التفكير إطلاقاً . ومن هنا دخل الشك في القلوب .

والملاحظ في الأوساط العربية ، بالرغم من تشكيل الجمعيات والأندية العلنية والسرية ، التركية - العربية ، الصرف ، أن طابع الاعتدال فيها كان سائداً . لأن نشاطها كان يظهر ضمن النظام الدستوري ، حتى ان المعارضة أيضاً كان يعبر عنها وفقاً مع النظام ، وان المطالب العربية تظهر ادارية أكثر منها سياسية . وهذا يعني عدم الرغبة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية ، والاكتفاء بتحقيق بعض المطالب العادلة المعتدلة والمشروعة : كالاقرار باللغة العربية لغة رسمية في الأقاليم العربية ، وبالموظفين العرب المحليين ، واستشارة السلطات المحلية عند تعيين الموظفين ، والقيام بالخدمة العسكرية ميدانياً في داخل كل بلد ، وصرف الواردات للحاجات الاقليمية والبلدية ، وتوسيع سلطات المجالس ، وتعيين خبراء أجانب لتنظيم الشرطة والدرك والمالية . حتى ان المؤتمر العربي ، الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ ، كان يدل على اعتدال المؤتمرين ، وليس في مقرراتهم تجاوز ملحوظ في المطالب ، أو خروج عن دائرة الامبراطورية . وإذا عقد هذا المؤتمر في باريس ، وبرعاية فرنسا ورضاه ، فما ذلك الا لطلب المساعدة والدعم والتوسط لتحقيق هذه المطالب ، ولكن الذي فهم من المؤتمر « أن الولاء على قدر المعاملة » .

أخذت الحكومة التركية هذا المؤتمر مأخذ الجد ، وحاولت استمالة بعض من أعضائه ، ولمحت اليهم بالمناصب العليا . وقبل بعضهم العرض دون الخروج عن المبادئ العامة المتبناة ، ولم يكن الاتحاديون الا مضللين ، لأنهم رأوا أن التسامح

مع العرب قد يجرحهم الى التنازل ومنح الامتيازات لأبناء القوميات الأخرى ، وبذا تتفتت الامبراطورية على أيدي رجالها قبل أن تتجزأ على أيدي أعدائها ، وهي أحوج ما تكون الى التماسك والتلاحم .

وإذا كانت هذه مطالب العرب المعتدلة ، فهذا لم يمنع من وجود بعض عناصر عربية متطرفة وذات أهداف عربية عامة: أهداف جمعية «العربية الفتاة» السرية التي وضعت في برنامجها : « تحقيق استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي ومن أي سيطرة أجنبية » . ولكن بين الأهداف والوسائل والتحقيق أغوار سحيقة وعوائق جمة . وكل المحاولات ، التي حاولها العرب ، لم تكن الا من قبيل التحذير والتنبيه . وإذا كان هنالك من تطرف حقيقي في المطالب أو ثورة على النظام القائم والانفصال ، فهذا لم يظهر الا بعد سلوك الشخصيات الكبرى العالية في الدولة مسلك التطرف والمغالاة في الشدة والتعصب للطورانية ومحاولة اذلال القوميات . وهذا يسوقنا الى معالجة النقطة الثانية وهي :

## ٢ - دمشق في الحرب العالمية الأولى ، وهي بيت القصيد :

في هذا المنظور العام العربي ، وجدت في دمشق ، قبل الحرب ، نهضة فكرية قوية ، قامت على أيدي علماء أجلاء ، وفقهاء ، ومفكرين ، التفوا حول الشيخ طاهر الجزائري . وقد استطاع هذا المعلم الطيب بعلمه وسلوكه ، وسعة اطلاعه ، وبعد نظره ، أن يفرس في نفوس الناشئة والأجيال الصاعدة ، التربية القويمة ، وحب الوطن ، والاعتزاز بالأمجاد العربية ، والتاريخ العربي ، والاقبال على تعلم اللغة العربية واتقانها . جمع الكتب الموقوفة على المساجد والمدارس والمخطوطات الثمينة ، وحفظها في قبة الملك الظاهر ، وألف منها نواة المكتبة الظاهرية الملحقة حالياً بمجمع اللغة العربية .

كان بين حضور مجلسه ، شخصيات كان لها أثرها البالغ في احداث النهضة الفكرية في دمشق . نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : جمال الدين القاسمي ، عبد الرزاق البيطار ، سليم البخاري ، رفيق العظم ، محمد كرد علي ، فارس الخوري ، عبد الحميد الزهراوي ، شكري العسلي ، عبد الوهاب المليحي الشهير بالانكليزي ، عبد الرحمن شهنندر ، سليم الجزائري ، وغيرهم . وكانت

عناصر الشبيبة المثقفة تحضر جلساتهم ، وتفيد من ثقافتهم ، ثم استقلت فيما بعد وألفت حلقة خاصة بها أطلق عليها اسم « الحلقة الصغيرة » ، وتضم بعض الشخصيات ، مثل محب الدين الخطيب ، عارف الشهابي ، عثمان مردم ، لطفي الحفار ، صالح قنباز ، صلاح الدين القاسمي ... الخ .

ووجدت في دمشق صحافة مثل : « صحيفة الشام » ، « حط بالخرج » ، « أبو نواس » ، ضاعت الطاسة « تعمل بتوجيه كثير أو قليل من السلطات التركية ، ولكنها كانت تغمر أحياناً ، أو تكتفي بالتلميح دون التصريح .  
والصحيفة الجادة العربية الرصينة ، كانت صحيفة « المقتبس » لمؤسسها المرحوم الأستاذ محمد كرد علي . وكانت ذات نزعة أدبية ، أخلاقية ، اجتماعية ، وبعيدة عن السياسة ، الا قليلاً ، خوفاً من السلطات . وادارتها ملتقى رجال الفكر في المدينة ، ومعروفة بولائها للعثمانية .

وأسس الشهيد شكري العسلي ، نائب دمشق في « مجلس المبعوثان » ، جريدة « القبس » ، ووادتها السلطات التركية وهي في أول تفتحها ، ومؤسسها خطيب مفوّه ، وله مواقف مشرفة في التنبيه الى « الحركة الصهيونية » وأهدافها الخطرة على العالم العربي : وشاركه في هذا التنبيه نجيب عازوري المقيم في باريس ، وغيرهما من رجال الحركة العربية في ذلك الحين . ومن عجب أن مؤتمر باريس ، في ١٩١٣ ، لم يتطرق الى الحركة الصهيونية . فهل كان ذلك منه دليلاً على عدم ادراك حقيقة الخطر ، أو السكوت دفعا لمشاكل أقوى من مشاكل قائمة ؟

ووجدت أيضاً حركة مسرحية نشيطة عامة ومدرسية تذكر بالتاريخ العربي وأمجاد البطولات العربية وحضارة العرب .

ولم يكن رجالا دمشق المفكرون بمعزل عن زملائهم في بقية المدن السورية والعربية والأجنبية . كانوا على اتصال دائم فيما بينهم ، ويؤلفون جمهورية فكرية عربية مستنيرة تسعى جاهدة لايقاظ الفكر العربي القومي والتشبع بالروح العربية .

وحقيقة القول ، أن الحياة المديدة ، التي قضاها العرب والترك معاً ، أوجدت بينهم بعض التآلف ، حتى إن الأتراك ، قبل تفجير الطورانية ، يقدسون «الشام» ويعنون دمشق ، ويقولون عنها «شام شريف» ، ويعتبرونها الأول والمصير : «أولي شام وآخر شام» ، ووجدت منذ إرجاع الدستور جمعيات لتأليف القلوب في العاصمة وفي الأطراف تقرب وجهات النظر . من ذلك تأسيس جمعية وناد في دمشق عرف باسم «شام اتحاد وترقي جمعيتنك قلوبى» أي «نادي جمعية الاتحاد والترقي الدمشقية لتأليف القلوب» ، وكان قريباً من ساحة المرجة ، ساحة الشهداء في مدخل شارع السنجقدار .

وبالرغم من هذه الظواهر الودية ، كانت الأفعال تكذب الأقوال . يقول فخري البارودي في «مذكراته» ، الجزء الأول : «الأتراك كانوا يومئذ أبناء الست ، ونحن أبناء الجارية ، ولم يتغير شيء إلا الكلمات : أي بدلاً من ياد شاهم جوق شاه أصبحوا ينادون يشاسون حریت . ولكن بدأت عيوننا تتفتح على الحقائق القومية . وبسبب الرعب الذي بثه الحكم العثماني في النفوس ، لم يكن أحداً يجرأ على ذكر العرب والعروبة» .

وظهرت بالمقابل ، على الأفواه التركية عبارات «نه شام شكري ، نه عرب يوزي» أي «لا حلوى الشام ولا وجه العرب» . والأمثلة من هذا النوع كثيرة . ومن جانب العرب ، كانت تسمع بعض الأنغام القومية كالأتية :

بني يعرب أين مجد جدودكم	وجودكم لعلائهم آثام
أبناء يعرب أين كل حقوقكم	أو تخضعون ووقها الأقدام
أبناء يعرب أين دور ملوككم	ومقرها بغدادكم والشام
ما جاء في إحدى وصايا المصطفى	أن الخلائف بعده أعجام

ومع دنو الحرب ، بدل الاتحاديون موقفهم ، وأخذوا يتحببون للعرب . ودخل هؤلاء الحرب معهم مكرهين . وهنا يجدر أن نتدرج بالتواريخ لنرى تسلسل الأحداث ومفاعيلها .

نشبت الحرب العالمية الأولى ، في ٢٨ تموز ١٩١٤ ، ودخلتها الدولة العثمانية في ٢٩ تشرين الأول ، الى جانب دول وسط أوربة : ألمانيا - النمسا - هونغاريا

وحليفاتها ، ضد دول الوفاق : فرنسا - انكلترا - روسيا وحليفاتها ، وأعلن النفير العام في البلاد العثمانية ، ولم يسلم منه شاب من سن السابعة عشرة حتى الخامسة والأربعين . وكان وقعه شديداً في سورية . إذ لم تبق القيادة العسكرية فيها جنوداً من أبنائها. وفرضت حالة الطوارئ ، والقانون العسكري ، والأحكام العرفية ، والرقابة ، فامان مسطور أو منظور أو على الهواء ، مدنياً كان أو عسكرياً ، إلا خضع لها وحسب ألف حساب من الوقوع في شراكها. وقام رجال الخفية ( المخبرات ) بواجبهم خير قيام . ونشطت « السوقيات » تجمع الجنود . وأعلن الجهاد المقدس ، في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ . وأمسك الفيلق الرابع بعنق دمشق ، وعمت صلاحياته أرجاء سورية والجزيرة العربية والعراق واليمن . واستلم إدارة القيادة والتوجيه الفريق الركن جمال باشا ، ناظر (وزير) الحربية ، أصله من جزيرة ميتلين ( لسبوس ) في بحر إيجه ، ولد سنة ١٨٧٣ ، أي أنه كان شاباً في قوة الشباب عام ١٩١٤ . رجل قوي الشكيمة ، اتحادي متعصب ، انقلابي خطير ، ثالث الأثافي : طلعت ، أنور ، جمال . دخل الوزارة في كانون الثاني ١٩١٤ ، وبدأت طموحاته تظهر . أبعدته رفقاؤه عن العاصمة خوفاً منه ، وابتلوا به العرب بعامة ، ودمشق بخاصة . مسلم ظاهراً ، وطوراني قلباً وقالباً ، منحوه صلاحيات واسعة إرضاء لطموحه ، شريطة أن يظل بعيداً عنهم .

استقبل جمال في دمشق استقبال الفاتحين . ويقول أحد أركانه : « استقبلنا في دمشق استقبالاً حافلاً ليس فيه زيادة لمستزيد ، وازدانت المدينة احتفاءً بقدم « فاتح مصر » ، وتراكم الألاف من الناس الى موقف القطار ، وفيهم رجال الدولة وقادة جندها ، وسادة البلاد ، وعلمائها ، وخطبائها ، وشعراؤها ، وقناصل الحكومات فيها . وذبحت الأضاحي ، وألقيت القصائد . . وكان يوماً لا نظير له » .

اتخذ جمال فندق ( داماسكوس بالاس ) ، في طلعة جوزة الحدبا ، مقراً عاماً له ، أخذ يتقرب من رجال دمشق وزعمائها وصحافيين ، ويفدق على بعضهم المال في سبيل الدعاية . وسعى جاهداً لدفع الشكوك تجاه الاتحاديين . وشجع فكرة العرب والعروبة ظاهراً . قال في حفل أقيم على شرفه يعلم منه وللخوف منه : « اعملوا على ترقية العرب والعروبة . جددوا مدينتكم » ، ودعا الى نبذ الخلافات



بين العرب والأتراك ، وكنتم غيظه من هؤلاء الشبان الذين أزعجته أناشيدهم الحماسية ، وارتفعت أصواتهم حتّى اهتز لها سقف القاعة وجناباتها من ترديدهم :

### نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد

وإذا أخذنا بقول جمال ، نجد أن أعيان دمشق جاؤوه وأقسموا بالأيمان الغلاظ بالحفاظ على ولائهم للدولة ، وبذل أقصى الجهد لمساعدتها . وما أن اطمأن باله حتى تغيرت أحواله : أسس ديواناً عرفياً في عاليه ، وآخر في دمشق ، في خان الباشا ، وبدأت السجون تستقبل الضيوف ممن يشتبه باتجاهاتهم السياسية ، حتى غصت بالموقوفين . وإذا ما اشتبه بأحد ، بادرت الضابطة بأعدادها الوفيرة تحتل الحي ، وتطوق الدار ، وتصعد السلالم والسطوح ، وتنتزع المسكين من بين أهله . وإذا ما تشفع به أحد من أفراد أسرته بقوله : « مظلوم يا بك » ، أجيب : « سكتر ، بيس أرب ، دين سيس ، أمانات يوك » ، أي « اخرس أيها العربي القدر ، لا ذمة لك ولا أمانة » ، حتى أن الأهالي أخذوا يرددون في مثل هذه الحالات العبارة : « جاء البلاء الأعظم » ، أو « يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف » .

وطبق التجنيد العام على أشكال مختلفة عند سوق الجنود : فمنهم من امثل مرضاة لوجه الله ودفاعاً عن الاسلام ؛ ومنهم من ذهب مكرهاً كمن يجر الى جهنم بالسلاسل ؛ ومنهم من دفع «البدل» وسلم ؛ ومنهم من فرّ لاجئاً في البراري والقفار أو الجبال ؛ ومن ذهب الى جبهة القوقاز فتفقت يداه ومات من الدنق ؛ والى جبهة الدردنيل ففرق في بحر مرمرية ؛ والى جبهة سيناء فذهب ولم يعد أو عاد مشوهاً .

وشتتت ضباط الاحتياط ، واعتقل أحرار العرب ممن اشتركوا في مؤتمر باريس عام ١٣ ، أو في ناد من اندية الأستانة ، أو في حزب من الأحزاب . وبالرغم من « عيونه » الكثر ، لم يستطع الكشف عن أسماء وهوية رجال « جمعية الفتاة » نظراً للسرية العميقة التي غلفوا أنفسهم بها ، وللأيمان التي تعاقدوا عليها ، والوفاء بالوعد شيمة العربي الأصل . ومن ذلك أن الرئيس المرحوم شكري القوتلي أحل سفك دمه بقطع شرايينه وهو في السجن وفضل الموت على أن يبوح بسر الجمعية ورجالها .

وإذا اطلعنا على « مذكرات جمال » وجدنا أنه وقف على إضبارة الموقوفين ، ولكنه أثر النظر في مصيرهم والحكم عليهم ريثما يعود ظافراً في حرب قناة السويس . وكانت هذه الحرب لسد الطريق على مواصلات بريطانيا وامبراطوريتها بعد أن حوصرت السواحل .

وخسر جمال المعركة وعاد الى دمشق مدحوراً مقهوراً ، وبدأ حملة ارهابية مروعة ومنظمة: أجرى للموقوفين محاكمة سرية في الديوان العرفي في عاليه . فحكمت بادانتهم وسيقوا الى الموت وهم ينشدون » .

### نحن أبناء الألى شادوا مجدداً وعلا نسل قحطان الأب جد كل العرب

ونفذ الحكم بالاعدام بأحد عشر شاباً عربياً من خيرة الشبان في ساحة البرج ، ساحة الشهداء ، في بيروت صباح يوم ٢١ آب ١٩١٥ .

وفي غضون ذلك ، كانت الحليفتان فرنسا وانكلترا تثيران الشعوب العربية على الامبراطورية العثمانية ، وتعدانها بالمساعدة والعون والتحرر من حكم العثمانيين ، وفي الوقت نفسه ، بدأت مراسلات سرية بين حسين ، شريف مكة ، والسير ماكماهون معتمد بريطانيا في مصر ، في ١٤/٧/١٩١٥ ، وانتهت في آذار ١٩١٦ . وقد نشرت وأصبحت معروفة باسم « مراسلات ماكماهون والشريف حسين » .

خرج عن هذه المراسلات مفهومان : مفهوم الشريف حسين ، وهو مفهوم متوكل على الانكليز وواثق بحسن نواياهم ، وقصده شريف ونبيل وهو تحرير العرب من الحكم العثماني وتأسيس الدولة العربية في آسيا ؛ ومفهوم انكليزي مراوغ ومخادع يعرف ما يريد ، وينفذه في الوقت الذي يريد .

وفي نيسان من عام ١٩١٦ ، أصدرت الدولة بسبب ظروفها المالية العسيرة ، النقد الورقي بدلاً من النقد الذهبي ، وفرضت التعامل به ، واستوفت به الضرائب ودفعت رواتب الموظفين . وما لبثت قيمة هذا النقد أن سقطت بالتدريج حتى الخمس . واغتتم المدينون الفرصة وسددوا ديونهم . إماما اختزنوه

فقد حلت بهم الكارثة وأي كارثة؟ وكانت الكارثة بعد الحرب أفظع مما كانت قبلهم:  
الأحمال المحملة من الورق النقدي لا تساوي شيئاً مذكوراً وتصلح للحرق .

ثم اتبع جمال القافلة الأولى من الشهداء بقافلة ثانية ، في بيروت ودمشق ،  
صباح ١٩١٦/٥/٦ ، وأعدم رجالها في ساحة البرج ، في بيروت ، وساحة المرجة  
بدمشق . وكان لهذا الإعدام رنة أسي ، ودمع عيون في شتى الأنحاء السورية  
والعربية .

وقبل الإعدام ، كان الأمير فيصل بن الشريف حسين في دمشق ، وعندما صدرت  
أحكام الإعدام بالموقيفين ، رجا جمالاً هو والشيخ بدر الدين الحسيني والشيخ  
أسعد شقير ، أن يعفو عنهم ، فأبى وتكبر ، ولم يقبل أي شفاعاة ، وانتحل « في  
مذكراته » الأعذار بعد أن خرب الديار وأعدم الأحرار .

ولم يكتف بهذا الإجراء التعسفي ، بل اتبع الإعدام بعملية نفى انتزعت  
عائلات بكاملها ، كباراً وصغاراً من أقرباء الشهداء ، وأجلاها عن دمشق ونفاها  
إلى الأناضول دون ذنب ارتكبه ، فزاد الألم آلاماً والبؤس بؤساً .

وفاض الشعر العربي بالحسرات على شهداء الرعيل الأول ، وتجددت  
ذكراهم كل عام . وكانت الجموع الغفيرة من أهالي دمشق تتزاحم بالمناكب لحضور  
الاحتفال بذكرى الشهداء في ساحة المرجة ، وبعد الاحتفال تسير هذه الجموع عبر  
الشوارع بكل خشوع إلى « تربة الباب الصغير » تتقدمها جوقة «مدرسة الاسعاف  
الخيري» وهي تعزف اللحن الحزين .

### أبت العين أن تذوق المناما والمنايا تغتال منا الكراما

حتى إذا ما وصلت ، وضعت الأكليل على أضرحة الشهداء سائلة لهم الرحمة  
والغفران .

★ ★ ★

بعد هذه الأحداث الأليمة ، أدرك أحرار العرب وفيصل ألا سبيل إلى رد  
الظلم إلا بالثورة على النظام . ومكر جمال ، ومكر فيصل والأحرار في دمشق ،  
واستأذن فيصل جمالاً ، وقفل راجعاً إلى أبيه الشريف حسين . ونشبت الثورة

العربية في ١٠/٦/١٩١٦ أي بعد شهر على اعدام الشهداء . وبمعرفة بريطانيا العظمى عسكرياً ومالياً نجحت الثورة ، وبقيت المدينة المنورة محاصرة حتى آخر الحرب . وأعلن الشريف حسين نفسه ملك العرب ، وانتخب الأمير فيصل وعمه ناصر لقيادة القوات العربية الزاحفة من مكة لمطاردة الأتراك . وتابعت جيوش الثورة طريقها الى الشمال ، وقطعت الخط الحديدي بين العقبة ومعان على الأتراك منعاً للامداد ، وأطبقت قوات فيصل وناصر عن يمين ، وقوات الحلفاء عن شمال على الجيش التركي المنهزم .

★ ★ ★

هذه أحداث دمشق على صعيد السلطات . وهنا يحضرنا سؤال يطرح نفسه وهو : ما رد الفعل الدمشقي تجاه اجراءات جمال ؟

لا مرية أن الرأي العام ، من حيث المبدأ ، لم يكن متضامناً مع الأتراك في الحرب . وعندما رفعت أعواد المشانق ، خاف الناس ، ولبت الأهالي ساكنين واجمين . كل واحد منهم خائف على روحه ، لا حول له ولا قوة على المقاومة . والجميع يضغطون آلامهم بين تضارب الآراء ، وشتى الاشاعات عن الحكام والشهداء .

وفي الحقيقة ، كانت سنوات الحرب عجافاً في دمشق . فقد قلَّ أو انقطع عنها استيراد المواد المصنعة . بسبب حصار السواحل من قبل الحلفاء . وندرت السلع الاستهلاكية وبعض المواد الغذائية الضرورية وشبه الضرورية ، كالرز والسكر وزيت الكاز والقهوة والشاي وغيرها . وارتفعت أسعارها أضعافاً مضاعفة ، واستيعض عنها بمواد ومنتجات أخرى : كالبرغل ، صناعة وطنية ، عن الرز ، والشعير والحمص المحمصين عن القهوة ، والزهورات والبايونج والنعنع و « شباشيل » الذرة عن الشاي ، والدبس عن السكر ، والشمع عن زيت الكاز ، وأصبح الخبز مركباً من شعير وذرة وكرسنّة ، علف الابل ، طعام الزقوم ، بعد أن ارتفع سعر القمح ، ووضعت الحكومة يدها على الانتاج . وأصبح القليل منه يباع في السوق السوداء على أيدي المهريين ولصوص المتعهدين ، وغلت الحاجيات الضرورية بعد ندرتها ، وطفق الكومبرادورات والوسطاء يبيعونها خلسة ويثرون على حساب الشعب المعوز المسكين . وقل الفحم الحجري ، فقطعت

الأشجار لتسيير القاطرات • وكثر الاقبال على استهلاك الكهرباء بعد نقص زيت الكاز • ولم تعد المحطة المركزية تلبي الحاجة ، حتى اضطرت الشركة الى قطع التيار الكهربائي مرة في الأسبوع عن كل حي • وتوقف ترامواي دمشق بين المرجة وحي الميدان ، والمرجة وحي المهاجرين ، وانتشرت في دمشق الطنابر والحмир البيض للانتقال من مكان لمكان ، ومن حي لحي في أنحاء المدينة •

وعمّ الضيق ، وشاع في الناس القول : « اخشوشنوا فان النعم لا تدوم » ، ومن الخير أن يقتتر الانسان على نفسه في الطعام والشراب ، ويبحث عن المواد الغذائية الضرورية عوضاً عن الاسراف في اللذائذ ، لأن البطنة تذهب الفطنة • وكثرت الدعوة للعودة الى الأرض ، المطعم الوحيد في أوقات الشدائد والعوز ، مما تنبته من حشائش وأوراق ، كما كثر التداوي بالأعشاب •

وقلّ الصديق ، وفقدت مكارم الأخلاق قيمها العليا ، وأصبحت المادة أساس التعامل بين البشر ، والقول « الهنا على قلب الشاطر » يتردد على كل شفة ولسان.

ولا نقول أن حالة البؤس هذه كانت فريدة في دمشق أو في سورية عموماً ، ولكنها كانت في بلادنا أعظم منها في غيرها لاعتمادنا على الخارج آنذاك • وفي ظروف الحرب ، كل شيء للجيش ، وتحت تصرف الجيش ، ولكن جيش مَنْ ؟ العرب أو الترك ؟!

وفي هذه الظروف القاسية التي لا ترحم ، نجد أناساً من عليّة القول وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية تقدم آيات الخضوع والولاء والاحترام والتبجيل والتعظيم لجمال • وما من رد فعل ولو بالحياد السلبي • وإذا سألهم السائلون : كيف ••• ؟ لمَ كم هذا ؟ ألا تخجلون من أنفسكم ؟ تلملموا ، وتحوقلوا ، وتقوقلوا مستعجلين مرددين : إيه ؟ ماذا تقول يا بني إننا ندفع عنكم شراً مستطيراً • إنما نحن مستهزؤون • ولكن هل هم حقاً مستهزؤون أو دجالون ، الله يستهزيء بهم ويردهم في طغيانهم يعمهون • ومثل ذلك قولهم : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق نبأ ، فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

وأخذت الفتاوى والحكم والاجتهادات والأمثال المنتحلة ، والأقوال المأثورة تتناثر من الأفواه بأقوال ضالة مضللة • منها قولهم : « وأطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولي الأمر منكم» • أقوال لايسع الانسان ألا يقول تجاهها : «استغفر الله العظيم ، ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم» •

وانتشر بين الطبقات الشعبية الفقيرة التي تبحث عن لقمة العيش قول بعضهم ما العمل ؟ هذا قضاء الله وقدره • ومن لا تقدر عليه ، ادع ربك يقدر عليه ، واليد التي لا تقدر عليها ، ادع ربك يقدر عليها ، «والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» وما أكثر الأقوال والأقاويل والضلال والتضليل في الظروف القاسية والأوقات العسيرة •

ولم تنعم دمشق بالراحة إلا بعد أن غادرها «الجنراليسيم» جمال في آخر العام ١٩١٧ ، فاستراح وأراح ، بعد أن فقد حظوته للهزيمة التي مني بها في حرب القناة • واستدعته السلطة المركزية في الاستانة ، واقتصر على وزارة البحرية • ومن عجب أنه لم يودع بمثل الحفاوة التي استقبل بها • ومثلت إثر مغادرته رواية في «مسرح الزهرة» ألفها بعض الشبان وكالوا له الشتائم من كل نوع بالصاع والمد ، مقاييس السعة في ذلك الحين وبعيده ، ولقب بالسفاح • ورحم الله أحد الظرفاء لقول نطق به في هذه المناسبة • وأرجو أن تغفر له ولي خشونة التعبير : «مزاج أهل دمشق غريب ، يستقبلون الوافدين مكرهين بالترحاب ، ويودعون الراحلين طواعية بالقبقاب» •

وفيما كان أهل دمشق سادرين في أحيائهم ، تقدم جيش «الثورة العربية» ، وتوالت الأخبار بوصول الجيش العربي المنتصر • ودخل فيصل دمشق في غرة تشرين الأول ١٩١٨ ، وسيارته تشق الطرقات بين الجموع الغفيرة والتلويح بالأيدي ، وهتافات المستقبلين من الجانبين : فيصل ، ناصر ، شكري ، أورنس ، بدلا من لورنس • ونثرت العطور والرياحين من الشباييك والشرفات ، وعلت التهنيدات ، وسال الدمع لروعة اللقاء ، والتقى الحبيبان الفرح والبكاء •

هجم السرور عليّ حتى أنه      من فرط ما قد سرنى أبكاني  
يا عين صار الدمع منك سجية      تبكين من فرح ومن أحزان

ياله من يوم عظيم من أيام العروبة الخالدة . رفعت فيه الراية العربية فوق مباني الحكومة ، ودحر الجيش التركي بقيادة مصطفى كمال الى الأناضول ، ولم يمض شهر حتى تحررت سورية كنهان النفوذ التركي .

وبعد جلاء الأتراك عن البلاد ، قامت في سورية دولة عربية مستقلة عاصمتها دمشق ، وملكها فيصل . وسلكت حكومته سياسة عربية صرفة في مختلف أجهزة الدولة ، وبشرت بمستقبل واعد ، ولكن الصعوبات أحاطت بها من كل جانب .

**أولاً : من جانب الحلفاء ، ظهرت الاتفاقات السرية على حقيقتها :**

( أ ) الاتفاقية الانكليزية - الفرنسية - الروسية ( نيسان - أيار ١٩١٦ ) المعروفة باتفاقية سايكس - بيكو ، والتي أبرمت قبل قيام الثورة العربية في حزيران ١٩١٦ ، أي قبل شهر واحد من إعلان الثورة . وانتشرت أخبارها بصورة غامضة ، وأشار إليها جمال ، وأعلم بشأنها الملك حسين ، وتردد فيصل بسببها . وكان الكل بين مصدق ومكذب ، ولكن بعد فوات الأوان . ولم يستطع أحد أن يعمل شيئاً أكثر من طلب استيضاحات دبلوماسية دون جواب شاف من أي دولة حليفة . وظهرت للعيان الخدعة المكتومة تعمل عملها في بلادنا .

( ب ) بعدها أتى العام ١٩١٧ بثلاثة حوادث كبرى في تاريخ العالم وتاريخ القضية العربية عموماً حاضراً ومستقبلاً ، وهي :

١ - دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى في ٤/٦/١٩١٧ ، وكان لهذا الحدث أثره الكبير والحاسم في تغيير موازين القوى المتصارعة وفي إنهاء الحرب ، وتدشين وحدة الدول الغربية - الأطلسية في المستقبل .

٢ - الثورة الروسية .

٣ - وعد بلفور في ٢/١١/١٩١٧ الذي هيا للمستقبل ميلاد إسرائيل ، وكان بعد مرور سنة على إعلان الشريف حسين ملكاً على العرب . وقد كتب عنه تشرشل : « إنه حادث لألف عام » . وعرض هذا « الوعد » على الرئيس الأميركي ولسون فباركه وباركته الحكومة الفرنسية في ١٤/٢/١٩١٨ ، والحكومة البريطانية في ٩/٥/١٩١٨ .

وبعد قتال دام أربع سنوات هلك فيها الحرث والنسل ، وقعت الهدنة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، ووضعت الحرب العالمية أوزارها . وبدأ كبار الساسة في العالم يلعبون بمصير الشعوب على خوان فرساي في قاعة المرايا وينظمون السلام الذي يريدون .

### ثانياً : صعوبات داخلية في حكومة دمشق :

الى جانب المشاكل الخارجية التي جابهت العرب وافيصلا ، كانت المشاكل الداخلية تتوالى : اضطراب حبل الأمن ، أعمال السلب والنهب في العاصمة ، ثورات في الأقاليم ، عصابات ، تنابذ في الرأي حول ادارة الحكم بين الشيوخ والشبان من « رجال الغيب » ، أحزاب متنافرة ، تعاطفات فرنسية ، تعاطفات انكليزية ، مشاحنات ، عدم استقرار . لقد حار فيصل ، وحيره أهل دمشق وطال صبره حتى عيل .

وبعد أن وضعت خارطة العالم العربي الجديدة موضع التطبيق ، بموجب المعاهدات السرية المكشوفة وتعديلاتها ، زحفت الجيوش الفرنسية الى دمشق ، بعد أن نزلت في الساحل اللبناني وأخذت تهدد دمشق . ونهض الشعب السوري تلقائياً بقضه وقضيضه للدفاع عن الحمى والعهد الجديد ، تؤازره قوات منظمة وغير منظمة ، متطوعة «(باشبوزوك)» . وقاد هذا الجيش يوسف العظمة للقاء الجيش الفرنسي بقيادة غورو ، بقوات غير متكافئة بحال من الأحوال مع قوات الجيش الفرنسي المنتصر في الحرب ، وحارب ببسالة ، واندفع بعزم ، وصح منه العزم والدهر أبى . ولم تدم المعركة طويلا ، وسقط يوسف العظمة شهيداً في وادي ميسلون ، في ٢٤ تموز ١٩٢٠ ، ودخلت الجيوش الفرنسية دمشق في اليوم التالي .

ومهما يكن من قول في هذا الاستشهاد الانتحاري ، فإن أقل ما يقال فيه ، إنه دفاع عن الحرية والاستقلال والكرامة العربية ، وإن لم تكن النتائج مضمونة . ولا ريب في أن العرب خدعوا بوعود الدول الحليفة العرقوبية - الانتهازية ، واتخذوا من تصريحاتها اللولبية والمطاطة والمنغطة والموشاة بالجلال والاحترام ،





عهوداً ومواثيق ، ولم تكن كذلك • ولذا كان يأسهم عظيماً بعد ميسلون • ولكنهم  
جددوا العزم لجهاد جديد في العهد الجديد •

وهكذا تداعت بسرعة أول دولة عربية حديثة تأسست في دمشق الشام ، دولة  
قصيرة الأجل ، في عمر الورود والزهر ؛ لأن المدة التي انقضت بين تكوينها  
ووأدها ، كانت أقل من سنتين ( ٢٢ شهراً ) ، من أول تشرين الأول ١٩١٨ الى  
٢٤ تموز ١٩٢٠ • والمدة بين اعلان استقلالها بصورة فعلية وزوالها ، كانت  
أقل من خمسة أشهر • من ٨ آذار الى ٢٤ تموز ١٩٢٠ •

★ ★ ★